مسلم بن الوليـــــد

حياته وشـــعره

لحضرة الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية
المدرس بدار العـــلوم

نريد من حديثنا هنا عن مسلم بن الوليد أن نصل منه رحما مجفوة يتجاوزها الباحثون من أهل الأدب مسرعين إلى بشار وأبي نواس، وإلى أبي تمام والبحتري وغيرهم من طبقة مسلم وتلاميذه، وقلما عنى أحد منهم بالكشف عن هذا الشاعر ولا بالبحث فى شعره أو الاختيار له، وهو لا يقل عن أولئك الفحول من شعراء زمانه بل يعده بعض أهل العلم متقدما على كثير منهم. وسنحاول أن نبر هذه الجوانب المهجورة من أدبنا لنجعل من ذلك سلفا محموداً لمن يريد مشاركتنا فى التنبيه إلى تلك الآثار العافية بين جوانح الزمن فى عصر يكاد يزيدها إمعانا فى العفاء على كثرة مايرى فيه من بوادر الارتقاء والتقدم، وانتشار الميل إلى التجديد فى نواح شتى من العلم والأدب والفن والفكر. وسنلم فى إيجاز بنشأة مسلم وعصره تمهيدا لما سنذكر من أدبه وما سنجلوه مما ينسب إليه من بديعه وتصنيعه.

والمعلوم أنه نشأ بالكوفة، وكانت لا تزال مصراً من أمصار العرب، ومنتدى للشعر والأدب، وإن كانت دمشق عاصمة الأمويين قد نازعتها منذ حين هذه المزايا العالية التى انتهت بعد قليل إلى مجد بغداد فى عظمتها الذهبية إبان ازدهار الملك والدولة فى الخلافة العباسية. والمؤرخون لا يذكرون شيئا

عن مولده كما يصنعون بأكثر الشخصيات الكبرى فى تاريخنا العربى . ويرجح ناشر ديوانه وشارحه العلامة المستشرق الهولندى « دى جوچى » المتوفى سنة ١٩٠٩م من طريق الاستنتاج ، أنه ولد بين سنتى ١٣٠ و ١٤٠ هجرية ؛ لأنه حين استقبل فى بلاط الرشيد « وكان كما تقول هذه الرواية » قد خرج من الشباب ونزقه ، ولم يكن فى عداد من يضطرب حياء ، وكان له فهم وتجربة ، وتمييز ومعرفة ، استنشده الخليفة قصيدة له كان قد حفظها فى صباه وهى التى يقول فى مطلعها :

أديرا علىَّ الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلى

وسماه يومئذ « صريع الغوانى » بقوله فيها :

هل العيش إلا أن أروح مع الصِّبا وأغدو صريع الراح والأعين النُجْل

فانبرى ينشد والرشيد يتطاول إليه ويستحسن مايقول من وصف شراب ولهو ودماثة وغزل . وإذا علمنا أن الرشيد ولى الخلافة ١٧٠ من الهجرة وعمره اثنتان وعشرون سنة ، وكان على غالب الظن حفظ هذه القصيدة وهو فى العاشرة من عمره ، كان ذلك مصانعا لجامع الديوان على صحة استنتاجه فى مولد مسلم ؛ إذ يكون حينئذ قد ناهز الثلاثين من عمره على أقل تقدير . ومهما دار بنا وبه الأمر فلا شك أنه نشأ بالكوفة فى بيئة فقيرة ومن أب نساج . ولم يعرف شىء عن تربيته الأولى . ولا عن الذين أخذ عنهم من العلماء أو الأساتذة . وكل ماهنالك أنه تلقى ثقافته من تلك الحياة الزاخرة حوله فى الأمصار العربية بين الكوفة وبغداد حين أخذ الفكر العربى يمتزج بعقليات الأمم الأجنبية بالترجمة والنقل للعلوم والفنون من السريان والفرس واليونان ، وحين بدأت المدارس الإسلامية تشعر بدبيب الخواطر الحرة فى النقد والأدب وعمدت النزعات الفلسفية تأخذ مكانها بين النحل والمذاهب المتعددة . وانتهى النضال بتلك المبادىء المتطرفة إلى ظهور الإلحاد والزندقة والميل إلى إفشاء المجون والعبث .

والتظرف بالمفارقة للتقرر المألوف من أصول الأديان والمعتقدات. واتجهت الأنظار إلى ماصار للدولة العربية من ضخامة السلطان وعظم الثروة، وزهت دور المياسير من التجار وأعيان الحواضر بالقيان والجوارى المجلوبة من بلاد الفرس والروم، وازداد كلف الملوك والأمراء بالمتمهرات منهن فى صناعة الغناء ورواية الشعر وحسن المطارحة للحديث والسمر. ومال الناس فى الجملة إلى حياة الخلاعة والمجون واللهو، وأقبلوا على عهد من الرخاء والخفض نهل من مشارعه العذبة شعراء هذا العصر الذين استخفتهم غضارة الدنيا إلى التهالك على الشهوات فى المجالس والاستمار بما لم يعهد له مثيل فى أمة من أمم التاريخ.

وفى وسط هذه الحياة الخليعة المترفة وبين تلك المظاهر الجديدة من حضارة الدولة عاش مسلم كما عاش أبو نواس، وأبو العتاهية، والعباس بن الأحنف، والحسين الخليع، ودعبل بن على وابن عمه أبو الشيص وغيرهم من نظراء مسلم وأصحابه. ولاتجد للمؤرخين أيضا كلاما فاصلا فى الحديث عن أصله ونسبه. فابن قتيبة يعده عربيا ويجعل نسبه فى الأنصار إلى رهط مالك ورزين من أسلم من الخزرج معتمداً فى ذلك على قوله: —

تقسمنى من مالك آل مالك ومن أسلم الأثرين آل رزين

وصاحب الأغانى يقتصر فى التعريف به على أنه مسلم بن الوليد وأبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبى أمامة أسعد ابن زرارة الخزرجى. والحكم ابن قنبر المازنى مناقضه ومهاجيه والمؤلب عليه فيما رمى به من هجاء قريش والافتخار بالأنصار مما كاد يريق دمه عند الرشيد مع أنس بن أبى شيخ يقول له: —

يسامى قريشا مسلم وهم هم بمولى يمانى وبيت مهدم
وما مسلم من هؤلاء ولا الألى ولكنه من نسل علج مكلم

مما يرجح عندنا أنه فارسى الأصل ولا يقدح فى ذلك مديحه للأنصار لأنه مما يمليه حقهم عليه من الولاء . ولأن معظم الكتب التى ورد فيها ذكره لم تتعرض فى ترجمته لأكثر من ذكر أبيه الوليد . والاقتصار على ذلك فى التعريف بشاعر يعد زعيما لنهضة جديدة فى الأدب وأستاذا للمدرسة البديعية الأولى يزيدنا اقتناعا بما وافقنا عليه من الرأى فى أصله الفارسى . ونحن مطمئنون إلى ماحمله على الزهد فى أن يجعل من نفسه داعيا شعوبيا يذيع مفاخر الفرس، أو شيعة علوية يتعصب للعلويين من أبناء فاطمة ، أو يظهر على أى حال بما يجعل ميله السياسى ذريعة إلى سفك دمه أو حرمانه من الغرض الذى جعله مناط أمله ومدار مناه من الحياة، وهو كما يظهر من تصفح سيرته ليس إلا ذلك المتاع بلعب الشباب وسكرة الصبا وقضاء الأرب من الاجتماع بالإخوان على الشراب والقصف والتداعى إلى تلك المجاذبة الماجنة بين القيان والندمان والاستباحة المسرفة لكل ممكن من اللذات والشهوات ؛ فهو الذى يقول :—

لم أصح من لذة، كلا ولا طرب ... وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفسى تنازعنى اللذات دائبة ... وإنما اللهو واللذات من أربى

وهو أيضا القائل :

سأنقاد للذات متبع الصبا ... لأمضى همى أو أصيب فتى مثلى
هل العيش إلا أن أروح مع الصبا ... وأغدو صريع الكأس والأعين النجل

نعم كانت هذه فلسفته فى الحياة، وتلك كانت نظرته إلى الدنيا يغتنم صفوها ويتمتع بلذاتها، وقد مضى مع هذه الغرة طول دهره حتى انقطع فى آخر حياته إلى صديقه الفضل بن سهل وزير المأمون، فقلده البريد بجرجان، وبقى بها إلى أن وشى بالفضل إلى المأمون فوجه إليه خاله غالبا فقتله بسرخس سنة ٢٠٢ هـ وقبل ذلك أصيب بامرأة له من أهله كانت تكفيه وتساعده على أمره وهو

يومئذ شيخ قد خلا من سنه، فثابت نفسه عن اللهو، وعزفت عن البطالة، وعافت الشعر والأدب، وسكنت إلى الوحشة من الناس والزهد فى الدنيا والانقطاع إلى النسك حتى قيل إن راويته كان يعرض عليه إذ ذاك ديوان شعره، فغافله وقذف بالديوان فى البحر، فلم يبق فى أيدى الناس منه إلا ما كان عند ممدوحيه من قصائده وما تفرق من ذلك فى العراق عند الرواة والمعاصرين من الشعراء. ويقول ابن النديم: إن شعره فى نحو مائتى ورقة على الحروف جمعه ورتبه أبو بكر ابن يحيى الصولى ورجل آخر كان فى زماننا، وبين أيدينا له ديوان مطبوع بمدينة بومبى بالهند من رواية أبى العباس الوليد بن عيسى الطنجى وديوانه المطبوع بليدن فى هولانده للمستشرق «دى جوچى» وكل منهما يذكر فى أخبار مسلم وأحاديثه جميع الكتب التى تناولته بالذكر: كالأغانى، وابن قتيبة، والموشح، والفهرست، ومطلع الفوائد، والموازنة، والنوادر، والكامل، وشرح المقامات، وكتاب المحب والمحبوب، ولطائف المعارف، ومقدمة الشعر لابن منقذ، والعقد الفريد، وزهر الآداب، والعمدة لابن رشيق.

ونشير هنا إلى بعض ماذكرته هذه الكتب عن أدبه وشعره ونقتطف من أحاديثه ومجالسه مع إخوانه ومعاصريه ماقد يميط لنا اللثام عن موقفه من هذا العصر من جهة تأثيره فى بناء مجده الأدبى الخالد على الدهر.

يقول ابن قتيبة: إنه كان مداحا محسنا ويذكر انقطاعه إلى يزيد بن مزيد قائد الرشيد ومديحه للبرامكة ولكاتبهم محمد بن منصور الحميرى ولداود بن حاتم المهلبى وماحظى به من جوائزهم التى بلغت آلاف الآلاف من الدراهم. وكذلك يقول أبو الفرج فيما حدث به عن أبى العباس المبرد: إنه كان شاعرا حسن النمط جيد القول فى الشراب، وكثير من الرواة يقرنه فى هذا المعنى بأبى نواس. وصاحب العمدة يجعله أيضا من طبقته ويذكر معه العباس بن الأحنف والفضل الرقاشى وأبان اللاحقى ويقول إنه زهير المولدين. كان يبطأ فى صنعته ويجيدها. وجعله عند

جماعة فوق أبي نواس، إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبض كان فى مسلم وإظهار توقر وتصنع ، وكان صاحب روية وفكرة لا يبتدىء ولا يرتجل ثم يوازن بينه وبين أبي تمام فيجعله أسهل منه شعرا وأقل تكلفا . ويذكر رأى البحترى فى تقديم أبي نواس عليه ؛ لأنه كان يتصرف فى كل طريق ويتبرع فى كل مذهب إن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . ويذكر سخرية البحترى من ثعلب فى مخالفته لهذا الرأى بأن ذلك ليس من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من تمرس بنظمه ودفع إلى مضايقه. وظاهر ما فى هذا الحكم من التحامل على مسلم وما فيه من المخالفة للصواب ، فإن كثيرا ممن لا يقولون الشعر من الأدباء يعرفون جيده من رديئه، ويستطيعون الحكم على المطبوع والمتكلف من الشعراء ، ويصح الاطمئنان إلى أحكامهم فى النقد وآرائهم فى الأدب . ويوضح لك هذا التحامل أن دعبل بن على كان تلميذ مسلم وخريجه وخادمه ، وكان لا يزال يقول الشعر ويعرضه على مسلم وهو يقول: إياك أن يكون أول ما يظهر لك ساقطا، فإنك مهما تجودت بعده فلا تزال تعرف به حتى قال قصيدته التى كان يسميها القديمة فرضى عنه مسلم وأمره بإذاعة أشعاره بعد ذلك . ومع هذا يقدمه البحترى على مسلم ويفضله عليه ويقول إن كلامه أشبه بكلام المتقدمين وأدخل فى مذاهبهم من مسلم، وهو ما لم يقل به أحد غيره . ويقول الآمدى فى الموازنة: إن مسلما كان يرتفع عن أبي تمام فى الدرجة لسلامة شعره وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع أبو تمام عن سائر من ذهب مذهب مسلم فى البديع لكثرة محاسنه واختراعاته. ويذكر أنه حلف لا يصلى حتى يحفظ شعر مسلم وأبي نواس فمكث كذلك شهرين حتى حفظه ودخل عليه بعض إخوانه يوما فرأى شعرهما بين يديه فقال له ما هذا؟ فقال « اللات والعزى » وأنا أعبدهما من دون الله . ويقول فى نسبة البديع إلى

مسلم :إن هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة فى أشعار القدماء ،فقصدها مسلم وأكثر منها فى شعره، وهى فى كتاب الله موجودة ووشح بها شعره ووضعها فى موضعها ثم لم تسلم مع ذلك من الطعن،حتى قيل :إنه أول من أفسد الشعر. نقل ذلك عن محمد بن القاسم بن مهرويه. كما قيل:إن أول من أفسد الكتابة البديع والحريرى وتلاميذهما. وظاهر أن معنى ذلك قصور المقلدين لهؤلاء من المتأخرين عن مجاراتهم،لتخلفهم وانحطاط ملكاتهم ففسدت بذلك الكتابة والشعر . ولعلك حين تستمع إلى مايقوله مسلم فى أبى نواس ومايقوله أبو نواس فى مسلم تستريح إلى ماذهب إليه الجمهور فى ترتيب هـــذا الشاعر فى مرتبته من أهل عصره .فقد قيل:إن أبا نواس ومسلما كان كل منهما يشتاق أن يرى صاحبه،وكانا إذا حضر أحدهما مجلسا تخلف الآخر حتى اجتمعا ذات يوم ، فأنشده أبو نواس « أجارة بيتينا أبوك غيور » وأنشده مسلم « أجررت حبل خليع فى الصبا غزل » قال دعبل ابن على فلقيت بعد ذلك أبا نواس فسألته عن مسلم،فقال:هو أشعر الناس بعدى. وسألت مسلما عنه فقال:هو أشعر الناس وأنا بعده.والنقد الحديث الذى يستمد حجته من الاستيعاب لكلام الشاعر ويعتمد فيما يصفه به على تاريخه ومذهبه سيضطر إلى التسليم بهذا الرأى ويضعه ثانيا لأبى نواس،لأنهما يشتركان فيما عرفا به من الخصائص الفنية من جهة الاختيار والأسلوب وحسن الافتتاح للمعانى البارعة فى وصف الشراب والسقاة والغناء والغزل . ولكن الحكمى حقا يمتاز بالقدرة على التصرف وترك التكرار للألفاظ وللتشبيهات إلا فى بعض غزله وطرديا ته التى وصف بها فهو دالصيد وكلابه ونعت بها الديكة وهى تسع وعشرون أرجوزة وأربع قصائد تنى وحدها بشعر مسلم أو بما بقى منه بعد صنيعه المعروف بشعره مع راويته ولذا يكون من الصعب على المتناول أن يضع موازنة صادقة بين الشاعرين لاختلاف وسائل الحكم فى المأثور عنهما من الشعر قلة وكثرة

كما هو ظاهر. ومن الطبيعى أن يكون لهذا النقص دخل فيما صير بعض النقاد إلى وصف مسلم بضيق المذهب وقلة التصرف والاقتصار على بعض الفنون الشعرية دون بعض وإن كان يمتاز فى فنه الغزلى بأنه لم يفرد المذكر بالغزل ولم يطل معه ولم يسرف باظهار العورة والتصريح الكاشف الذى كان يرضى العامة وكثيرا من المستهترين من الخاصة عن أبى نواس وكان سببا فيما حظى به من الشهرة دون مسلم. وسنعرض من كلامهما قصيدتين متشابهتين فى العروض والقافية والموضوع تمثلان حياة المجون وتصفان ناحية من نواحى الاجتماع فى ذلك الظل السابغ من مجد التاريخ العربى فى الخلافة العباسية عند ذكرنا للغزل فى شعر مسلم.

أما المديح فى شعره فهو على أنه نتاج طبع مهذب متحضر وثمرة تنقير وروية طويلة لم يخل من التقليد لمذاهب المتقدمين والتأثر بطريقتهم وأساليبهم فى النظم، فهو حين يمدح لا يعدو أن يفتتح شعره بالغزل ثم يصف رواحله وسيره فى الصحارى المقفرة ويتخلص من ذلك إلى الغرض بالمناسبة المحكمة أو الفجاءة المقتضبة، ويذكر الممدوح فيجعله كالأسد فى الإقدام والبسالة، وكالموت فى تحدى الابطال بالآجال، وكالغيث فى البذل للنوال، وإنه يكسو بالدماء شفار السيوف، وينحر هجان الكرم للضيوف، ويمضى معه إلى آبائه وقومه فيتحدث عن وقارهم ومجالسهم، ويشاكل بين كهولهم وولدانهم، فيقترب بذلك من زهير فى صنيعه بآل أبى حارثة وتطول قوافيه ويبعد مداه حتى تبلغ القصيدة الواحدة إلى تسعين وإلى مائة من الأبيات، وتوقعه هذه الإطالة فى التكرار للمعانى وللألفاظ كما قدمنا، وكذلك كان الشعر فى عصر مسلم يتلاقى فيه الشعراء عند المديح على أسلوب متشابه يشق معه التمييز بين شاعر وآخر؛ لشدة المشابهة بين مباديه ومقاطعه ولقلة الخلاف بين معانيه وأفكاره؛ ولأنه كان فى الغالب غير متصل بشعور الشاعر ولا معبر عن صحة إحساسه وصدق نيته ويقصد منه فى

الجملة الحظوة بجوائز الممدوحين؛ لاشباع الشهوات وكفاية الطلبات. وإن كان بالضرورة متأثراً بطوابع الحضارة الجديدة فى صفاته وإشراق ديباجته وسلامة جوانبه من الغرابة التى لم يكن يخلو منها الشعر فى عصوره القريبة من عهد مسلم الذى كان كما تقدم قد ارتقى فيه مستوى العقلية العربية حتى خلعت على سوانح الشعراء ألوانا من البهاء والخلابة والمعانى المتخيرة المنتزعة من هذه المدنيات الصناعية والمستحدثات المجانسة لأبهة الملك وعظمة الدولة. وفيما نسوق من مدائح مسلم التى هى الكثرة الغالبة من شعره إذ هى نحو ٧٠٠ بيت من مجموع لا يتجاوز الألف إلا بقليل، سيظهر لنا شدة اتصالها بمذهبه المعروف من التنقيح وطول الروية، والمعاودة إلى الإسقاط والتتبع. وما كان يبذله فى تأليفها من الجهد وما استودعها بذلك من القوة والحلاوة — مع استخدامه فى كل حين لأنواع من البديع لا تحس له فى معظمها بنبوة طبع، ولا كد خاطر، ولا اجتلاب قافية أو استكراه كلمة، إلا مالم يسلم منه من الحب لكلمات بعينها يرددها فى المقام الواحد وفى المقامات المختلفة مثل كلمة: الصبا، والغزل، والأعين، والنجل حين يتغزل. وكذكر البطل والأبطال فى المديح متعاقبة، وفى القافية إلى غير ذلك مما سنشرحه فيما اخترناه من مدائحه التى أولها لاميته فى يزيد بن مزيد وثانيها مدحته لداود بن حاتم المهلبى، والثالثة قصيدته للفضل بن يحيى البرمكى نختار من كل واحدة منها أبياتا نستأنس بها فى تصحيح دعوانا على مسلم.

ويذكر المؤرخون أن الوليد بن طريف الشارى وهو شيبانى من رهط يزيد ابن مزيد كان خارجا على الرشيد فقد اشتدت عليه شوكته حتى أضر به ذلك إضرارا شديدا، فأشار عليه البرامكة بأن يرميه بيزيد، وكان لانحرافهم عنه يريدون به إحدى اثنتين: أن يقتل أو ينهزم، فيكسره ذلك عند الخليفة أو يريحهم منه. فجعل يزيد يما كره حتى أمكنه فقتله. ففرح بذلك الرشيد وسر به واستقبل يزيد حتى أجلسه معه على سريره، فمدحه مسلم من غير أن يلقاه أو يعرفه على ماجرت

به عادة الشعراء من ميلهم إلى تخليد الأبطال وتقييد المآثر بهذه القصيدة التي نسوقها إليكم قال مسلم:—

أجررت حبل خليع فى الصبا غزل ... وشمرت همم العذال فى عذلى
هاج البكاء على العين الطموح هوى ... مفرق بين توديع ومحتمل
أما كفى البين أن أرمى بأسهمه ... حتى رمانى بلحظ الأعين النجل
ماذا على الدهر لو لانت عريكته ... ورد فى الرأس منى سكرة الغزل

ثم يقول:

وبلدة لمطايا الركب منضية ... أنضيتها بوجيف الأينق الذلل
فيما المقام وهذا النجم معترضا؟ ... دنا النجاء وحان السير فارتحل
يامائل الرأس: إن الليث مفترس ... ميل الجماجم والأعناق فاعتدل
حذار من أسد ضرغامة بطل ... لا يولغ السيف إلا مهجة البطل
لولا يزيد لأضحى الملك مطردا ... أو مائل السمت أو مسترخى الطول
ناب الامام الذى يفترعنه إذا ... ما افترت الحرب عن أنيابها العصل
كم قد أذاق حمام الموت من بطل ... حامى الحقيقة لا يؤتى من الوهل
أغر أبيض يغشى البيض أبيض لا ... يرضى لمولاه يوم الروع بالفشل
يغشى الوغى وشهاب الموت فى يده ... يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
يفتر عند افترار الحرب مبتسما ... إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج فى يوم ذى رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق مايعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتى على مهل
يغشى المنايا المنايا ثم يفرجها ... عن النفوس مطلات على الهبل
يقرى المنية أرواح الكماة كما ... يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف دماء الناكثين به ... ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
يغدو فتغدو المنايا فى أسنته ... شوارعا تتحدى الناس بالأجل

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل
تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
صافي العيان، طموح العين، همته فك العناة وأسر الفاتك البطل
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل

ثم يقول:

لا تكذبن فإن الحلم معدنه وراثة في بني شيبان لم تزل
الزائدون قوم في رماحهم خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له حلما وطفلهم في هدى مكتهل
اسلم يزيد فما في الدين من أود إذا سلمت وما في الملك من خلل
لولا دفاعك بأس الروم إذ مكرت عن بيضة الدين لم تأمن من الثكل
والمارق ابن طريف قد دلفت له بعسكر للمنايا مسبل هطل

وبالتأمل في هذه القصيدة ترى فيها عدة أبيات لا يوجد في بعضها كبير فضل في المعنى عن بعض مع ما هو ظاهر من التكرار لكثير من الكلمات والقوافي. وقد نظر في قوله:

قد عود الطير عادات وثقن بها (البيت) إلى قول النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

وتخلف في قوله: —

تراه في الأمن في درع مضاعفة (البيت)

عن الأعشى في قوله لقيس بن معد يكرب:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

ويروى أن يزيد اعترض عليه بهذين البيتين بعد تلاقيهما، فقال له وصفتك أيها الأمير بالحزم ووصف صاحبه بالخرق. وكذلك قال كثير لعبد الملك

ابن مروان حين أنشده قوله فيه :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها

وليس الأمر على هذا الوجه من قول كثير ولا مسلم؛ إذ يقول الجرجانى فى الوساطة :إن مذاهب العرب المحمودة عندهم الممدوح بها شجعانهم التفضل عند اللقاء وترك التحصن فى الحرب،وإنهم يرون الاستظهار بالجنن ضربا من الجبن وكثرة الاحتفال والتأهب دليلا على الوهن.ويروى أنه كان عند الرشيد ليلة فقال له من الذى يقول فيك:تراه فى الأمن(البيت)فقال : لا أدرى يا أمير المؤمنين. فقال له سوءة لك من سيد قوم تمدح بمثل هذا الشعر ولا تعرف قائله وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه وحفظه ووصل قائله !

فخرج من عنده فطلب مسلما فكان هذا أول اتصاله به. ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئا عن الفارعة أخت الوليد بن طريف فإنها كانت شاعرة جيدة الكلام.فمن قولها ترثى أخاها بعدما حاولت أن تأخذ بثأره وكانت تتشبه بالخنساء فى الرثاء : —

ذكرت الوليـــد وأيامه إذا الارض من شخصه بلقع

فأقبلت أطلبه فى السما ء كما يبتغى أنفه الأجدع

أضاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذى ضيعوا

لو ان السيوف التى حدها يصيبك تعلم ما تصنع

نبت عنك أو جعلت هيبة وخوفا لصولك لاتقطع

أما مديحه لداود بن حاتم المهلبي فقد حدث الحسن بن سعيد فقال : كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا.فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه.فوجه إليه مسلم بن الوليد راويته بشعره الذى يقول فيه جعلته حيث ترتاب الرياح به(البيت) فقدم عليه عقب انصراف الشعراء من عنده فقال لحاجبه استأذن على الأمير.فقال له ومن أنت؟قال شاعر . قال قد

انصرم وقتك وانصرف الشعراء. وهو على القيام. فقال ويحك إنى وفدت على الأمير بشعر ماقالت العرب مثله. قال وكان مع الحاجب أدب يفهم به مايسمع فقال هات حتى أسمع فإذا شيء يقصر عنه الوصف. فدخل على داود فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ماقيل فيه مثله فأمره بإدخاله، فلما افتتح القصيدة بين يديه استوى جالسا وأطرق حتى فرغ ثم قال له: أهذا شعرك؟ قال نعم. قال فى كم قلته؟ قال فى أربعة أشهر. قال لو كنت قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا. وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك وإنى أنظرك أربعة أشهر فى مثله وأجرى عليك، فإن فعلت كنت صاحبه وأجزلنا صلتك عليه وإلا حرمناك فقال أو الإقالة قال نعم. قال الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك به فقال: أنا ابن حاتم ثم أمر له بجائزة وحمل إلى مسلم من ساعته مائة ألف.

وإنما سقنا هذه القصة لنعلم منها مبلغ ماكان عليه القواد وأهل الرياسات فى تلك الأزمان من لطف الفطنة وتمام البصيرة والمعرفة بأقدار الكلام، وستبرونه حين يفتتح القصيدة ينهى صاحبه عن دعوى الشوق له ويذكر أنه انتهى عن هوى الهيف مع أنه لو شاء راجع الصبا ومشت فيه عيون الغيد ويتساءل كيف أمضى ليلة الخيف بالراح وأنه شجها بلعاب المزن فحل أعلاها وعقد أسفلها وينتهى من ذلك إلى ذكر مامر به من مجاهل الطريق فحسر به الرياح وألاذها بأكناف الجلاميد من الصخور وقراه بالسير على ناقته التى تفرى باخفافها الفلوات، وتبادر به إلى الممدوح إسفار الصباح مقلدا فى ذلك للأخطل حتى يرويها على داود الذى يغنى مناه بأدنى عطاياه فيطفىء به نيران الحروب ويشق لمتوحد رأيه الظنون ويمثل له الأمور من وجوهها ويجعل مثله الليث الهصور الذى يلقى المنية فى أمثال عدتها ولا يقصر إن قصرت الرماح ولا يعرد إذا عردت السيوف، يدانى المناهل ويدرك الغايات مع المهل، ويعطف على قومه فيجعل لهم رق الصريح وإنجاب الفتيان وأنه يداوى الثغور، ويخلى المعاقل من

الأبطال ويجود بالنفس حين يضن بها الجواد ، ويذكر صلبه لبعض من ظفر به من الخوارج وكيف أنه أعلى جذعه فى الهواء حتى ارتابت به الرياح وحسدت الطير عليه ضياع اليد ومضى به بين هذه المناقب التى عددها له حتى انتهى إلى قيادته للخيل التى يقدمها على النصر ويؤوبها بالغنائم يغدو له كل طالب ويأوى منه كل طريد إلى ماجد متعود صدق الحديث وإنجاز المواعيد يقول :

لاتدع بى الشوق إنى غير معمود نهى النُّهى عن هوى الهيف الرعاديد
لو شئت لاشئت راجعت الصبا ومشت فىّ العيون وفاتتنى بمجلود
سل ليلة الخيف هل أمضيت آخرها بالراح تحت نسيم الخرد الغيد
شجتها بلعاب المزن فاغتزلت نسجين من بين محلول ومعقود

ثم يقول :—

ومجهل كاطراد السيف محتجز عن الأدلاء مسجور الصَّيا خيد
تمشى الرياح به حسرى موولهة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد
قريته الوخد من خطارة سرح تفرى الفلاة بإرقال وتوخيد

وترونه هنا ينهج سبيل الأخطل فى إحدى جياده العشر إذ يقول :—

ومهمه نازح تعوى الذئاب به نائى المياه عن الوراد مقفار
جاوزته بعلنداة مناقلة وعر الطريق على الأحزان مضمار

قال مسلم :—

إليك جاورت إسفار الصباح بها فى جنح ليل رحيب الباع ممدود
حلت بداود فامتاحت وأعجلها حذو النعال على أين وتحريد
أعطى فأفنى المنى أدنى عطيته وأرهق الوعد نجحا غير منكود
والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت شرقا بموقدها فى الغرب داود
لم يأت أمراً ولم يظهر على حدث إلا أعين بتوفيق وتسديد
موحد الرأى تنشق الظنون له عن كل ملتبس منها ومعقود

تمنى الأمور له من نحو أوجهها ... وإن سلكن سبيلا غير مورود
كالليث بل مثله الليث المصور إذا ... غنى الحديد غناه غير تغريد
يلقى المنية فى أمثال عدتها ... كالسيل يقذف جلمودا بجلمود
إن قصر الرمح لم يمش الخطا عدداً ... أو عرد السيف لم يهمم بتعريد
إذا رعى بلدا دانى مناهله ... وإن بنين على شحط وتبعيد
جرى فادرك لم يعنف بمهلته ... واستودع البهر أنفاس المجاويد
آل المهلب قوم لايزال لهم ... رق الصريح وأسلاب المذاويد
نجل المناجيب لم يعدم تلادهم ... فتى يرجى لنقض أو لتوكيد

ثم يقول :—

تلك الأزارق إذ ضل الدليل بها ... حتى أخذت عليه بالأخاديد
كان الحصين يرجى أن يفوز بها ... حتى استقل به عود على عود
وضعته حيث ترتاب الرياح به ... وتحسد الطير فيه أضبع البيد
لايعد منك حمى الإسلام من ملك ... أقمت قلته من بعد تأويد
كفيت فى الملك حتى لم يقف أحد ... على ضياع ولم يحزن لمفقود
لايفقد الدين خيلا أنت قائدها ... يعهدن فى كل ثغر غير معهود
محملات إذا آبت غنائمها ... ومقدمات على نصر وتأييد
تستأنف الحمد فى دهر أوائله ... موسومة بفعال منك محمود
عودت نفسك عادات خلقت لها ... صدق الحديث وإنجاز المواعيد

أما مدحته للفضل بن يحيى فقد وقعت فى ديوانه موجهة إلى الفضل بن جعفر بن يحيى. وفى كتاب « الشعر والشعراء » أن الممدوح بها هو الفضل بن يحيى وكذلك فى ترجمة مسلم فى الأغانى. وقد بحثنا فى ولد جعفر البرمكى فلم نجد بينهم من يسمى الفضل على ماذكره صاحب العقد وإن كان الجهشيارى ذكره فى كتابه الوزراء والكتاب. ولعل الذى أوقع شارح الديوان فى هذا رواية

بعض أبيات القصيدة منسوبا فيها الفضل إلى جعفر فى قوله :—

وردن رواق الفضل فضل بن جعفر. وهى رواية فى البيت، ويروى البيت:

وردن رواق الفضل فضل بن برمك ، ويروى أيضا وردن رواق الفضل يأملن فضله. والذى يطالع تاريخ القصيدة فى الأغانى لا يتردد فى أن صاحبها الذى قيلت له هو الفضل أخو جعفر لاولده وهى به أشبه وهو بها أحق وقد ساقها مسلم زهيرية على مثال قول ابن أبى سلمى « صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو » وستراه يبتدئها بذكر التعزى عن الجهل والانتهاء إلى عصيان السواد والشباب ومطاوعة السلو، ويظهر لك تقليده فى هذا المطلع عودته ثانية بعد بضع أبيات إلى ذكر النساء والغزل ووصف الحجول والبرين من حلى النساء والملاحة والشكل من محاسنهن ويشبههن بالأنجم الزهر ويترك ذلك إلى جمال الطبيعة ووصف ماقطعه من المجاهل إلى الممدوح حتى ورد رواقه بالثناء والجزل فقابله بما غمره من نداه الذى جعل مزنته مرعى للآمال ومعدنا للنوال وذكر ماتساقطه يمينه من الندى، وشماله من الردى، وما يفصله منطقه من عيون القول متبعا فى ذلك ماسنه آباؤه ومنتهجا منهج زهير فى لاميته كما قلنا ووصفه باستجلاء نعم فى فمه كأنها بجاجة النحل وبتحمله للأعباء وعطف على مغارسه وأصوله فأضافها إلى تلك الهضبة البرمكية التى لا يطير الجهل بحباها ولا يفوت الذحل حماها ثم استمطر الغنى من كفيه واستعطف الأمر الأبى بحزمه وانتهى إلى الحكم بأنك متى شئت الظفر بالغنى فادن من الفضل أو ليأذن لك الفضل تجد السماح وافرا والغنى حاضرا يقول مسلم :

تعز فقد مات الهوى وانتهى الجهل ... فرد عليك الحلم ماقدم العذل

أحين طوى عن شرة اللهو شرة ... يطيع سواد الرأس إن قال لا تسل

فدع قلبه والنأى لا يذكر الهوى ... ليالى يلقاه بأترابه الشمل

خرجن خروج الأنجم الزهر والتقت ... عليهن منهن الملاحة والشكل
غفين على غيب الظنون وغضت البُرَ ... ين فلم ينطق بأسرارها حِجْل

ثم يقول :

وغبراء لا يسقى على الخمس ركبها ... قطعت وريق الشمس يغلى به السَّجْل
إذا شئت خلفت الصبا أو صحبتها ... بوجناء موصول بغاربها الرَّحْل
أتتك المطايا تهتدى بمطية ... عليها فتى كالنصل يؤنسه النصل
فلما رأين النور بَرَّكْن تحته ... على أمل يشجَى به اليأس والمطل
وردن رواق الفضل فضل بن برمك ... فحط الثناء الجزل نائله الجزل
فتى ترتعى الآمال مزنة جوده ... إذا كان مرعاها الأمانىُّ والبُطل
تُساقط يمناه ندى وشماله ... ردى وعيونَ القول منطقهُ الفصل
ألح على الأيام يقرى خطوبها ... على منهج ألفى أباه به قبل
كأن نعم فى فيه يجرى مكانها ... سلافة ما مَجَّت لأفراخها النحل
حمولا لعبء الدهر ينهض عفوه ... به مستقلا حين لا يحمل الثُّقل
أناف به العلياء يحيى وجعفر ... فليس له مثل ولا لهما مثل
فروع تلقتها المغارس فاعتلى ... بها عاطفا أعناقها قصدَه الأصل
جرى آخذا يحيى مُقَلِّد جعفر ... وصلَّى أمامَ السابقين ابنه الفضل
بكف أبى العباس يستمطر الغنى ... وتستنزل النُّعمى ويُسترعَفُ النصل
ويستعطف الأمر الأبى بحزمه ... إذا الأمر لم يعطفه نقض ولا فتل
إذا ما أبو العباس حل ببلدة ... كفاها الحيا واستجهل الخوف والمحل
تبسم عنك المَهل فى غاية الندى ... كذلك يحيى كان قدمه المهل
وما خوَّلتك المكرمات سجية ... حبيت بها إلا وأنت لها أهل
رقيب على غيب الأمور ورجمها ... برأى قويم منه ما الغصب والخَتْل
متى شئت رَفَّعتَ الستور عن الغنى ... إذا أنت زرت الفضل أو أذن الفضل

وننتقل بعد ذلك إلى شيء نستروح به من هذا الجد إلى بعض مايتسع المقام لذكره من غزله ووصفه للشراب والسقاة، ونبدأ بذكر القصيدة التى قدمنا أن الرشيد كان حفظها له فى صباه واستحسن مافيها من وصف شراب وغزل، وقد افتتحها بمطالبة صاحبيه أن يديرا عليه الراح ونهاهما عن طلب قاتلته بدمه وهى التى لايحزنه أن يموت صبابة من أجلها ولكنه يجزع لفراقها وقولها لصاحبتها: إن الثريا أقرب إليه من وصالها وهى بذلك تحيي مهجته وتميتها بين وعدها ومطالها وقلة نيله سوى الشجو من حبها ثم يصف مازادته عيناه من النظر إليها واستراحته من العذال لكتمانه صبابته بها وانتقل إلى ذكر الخمر فجعلها تمنح شرابها الملك وسماها مجوسية الانساب كما سيفعل فى رائيته الآتية. وهو يقصد أنها فى الاصل كرمة تسقى بالماء حتى تصير عنبا، ثم تعصر فاذا صارت خمرا مزجت بالماء فكأنها زوجت به، فكان قبل أباها ثم صار حليلها فأشبهت المجوسية التى يتزوجها أبوها كما كان ذلك سائغا فى شرائعهم، ثم جعل يصف اختمارها وطبخ الطبيعة لها وماتثيره من النشوة والفرح فى أصحابها وماتبعثهم عليه من الاهتزاز والأريحية وذكر طلبه إياها ورقيته للغالى بها من أهلها وتعتيقها وإغارتها على كف المدير بلونها وإماتتها للنفوس وإحيائها ومايتصاعد فى الأقداح من حبابها وشبه بالظباء العكنف أباريقها وذكر الساقية الحوراء ومضاحكها لعودها وإسعاد المزمار لها واستغناءهم عن التغزل بابتسامها، وعطف على رفاقه الموافقين وصحابه المواتين، فجعل الراح إذا علت منهم الذوائب تمشت بهم كما يمشى المقيد فى الوحل، وعاد إلى الساقية يكرر ذكر محاسنها وينزه عينيه بالنظر إلى عينيها وهى تقوده إلى الصبا وترده صريع الكأس والأعين النجل. يقول:

أديرا علىَّ الرَّاحَ لا تشربا قبلى ... ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى
أحبُّ التى صدَّت وقالت لِتربها ... دعيه: الثريا منه أقربُ من وصلى

أماتت وأحيت مُهجتى فهى عندها مُعلقةٌ بين المواعيد والمَطل
وما نِلتُ منها نائلا غيرَ أننى بِشَبْحِو المحبين الأُولى سلفوا قبلى
كتمتُ تَباريحَ الصبابة عاذلى فلم يَدرِ ما بى فاسترحتُ من العذْل
ومانحةٍ شُرًّا بها المَلكَ قهوةٍ مجُوسيَّةِ الأنساب مسلمةِ البعل
ربيبةِ شمس لم تهجن عروقها بنار ولم يقطع لها سعف النخل

يريد أنها معصورة من العنب مطبوخة بحرارة الشمس وليست تمرية تقطع لها أغصان النخيل :

تصد بنفس المرء عما يغمه وتُنطق بالمعروف ألسنةَ البخل
بعثنا لها منا خطيبا لبضعها فجاء بما يمشى العَرْضنة فى مهل
رقى ربُّها حتى احتواها مغاليا عقيلته دون الأقارب والأهل
فرانى بها عذراء كل فتًى ندى جزيل العطايا غير نكس ولا وغْل
معتقة لاتشتكى وطأ عاصر حرورية فى جوفها دمها يغلى

جعلها حرورية لتوقدها وحدتها إشارة إلى ماكان يوصف به أولئك الخوارج من الحرورية من الاشتغال والحرارة والنجدة

أغارت على كف المدير بلونها فصاغت له منها أنامل كالذُّبل

يشير بذلك إلى مايلقيه لون الزجاجة من شعاع صفرتها على أنامل الساقى فيجعلها مشابهة لتلك العظام الصفر المأخوذة من الفيلة أو من سلاحف البحر وهى الذبل :

أماتت نفوسا من حياة قريبة وفاتت فلم تطلب بتبل ولا ذَحل
كأن حَباب الماء حين يشجها لآلىء عقد فى دماليج أو حجل
كأن ظباء عكَّفاً فى رياضها أبارِيقُها أوحسن قعقعة النبل
ظللنا نناغى الخلد فى مشرع الصبا علينا سماء العيش دائمة الهطل
وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عُطُل

أى معطلة مما تتزين به السيقان من الخلاخيل ونحوها ليتم الشبه بين رقبة العود وبين الساق من الجارية

تضاحكه طورا وتبكيه تارة ... خدلّجةٌ هيفاء ذات شوى عبل
إذا ما اشتهينا الأقحوان تبسمت ... لنا عن ثنايا لا قصار ولا نُعْل
وأسعدها المزمار يشدو كأنه ... حكى نائحات بتن يبكين من ثكل
غدونا على اللذات نجنى ثمارها ... ورحنا حميدى العيش متفقى الشكل
أقامت لنا الصهباء صدر قناتها ... ومالت علينا بالخديعة والختل
إذا ما علت منا ذُؤابةَ شارب ... تمشّت به مشى المقيد فى الوحل
فلا نحن متنا ميتة الدهر بغتة ... ولاهى عادت بعد عل إلى نهل

ثم عاد إلى تكرار معناه فى الساقية بما فيه من تشبيه ووصف وتخيل ولم يكد يغير مما سلف شيئا — يقول :

وساقية كالرئم هيفاءَ طفلة ... بعيدة مهوى القُرط مُفعمة الحجل
تنزّه طرفى فى محاسن وجهها ... إذا احتُثّت الطاسات يغنى عن النُقل
سأنقادُ للذات متبع الصبا ... لأمضىَ همى أو أصيبَ قنى مثلى
هل العيش إلا أن أروح مع الصبا ... وأغدو صريع الراح والأعين النُجل

ونراه فى هذه القصيدة لم يدع شيئا مما كان يدور فى مجالس اللهو إلا ذكره من وصف الشراب والغناء والسقاة وحنين العيدان وإسعاد المزامير . وعف عما وراء ذلك مما كان يصطنعه دائما أبو نواس فى غزله وخمرياته من استعانته على إرسال شهوة النفس إلى غاياتها الدنيئة مجونا وتعاهرا بذكر العورات ومضاجعة الفاحشة مما نعتقد أنه كان ذريعة قبيحة إلى انتشار هذا اللون من الخطيئة فى الغزل بالمذكر والإسراف فى المباهاة بحبه والوقوع فى الشناعة والإثم بانتهابه وقضاء الأوطار منه. وسنوازن هنا بينه وبين مسلم فيما وعدنا به من قصيدتيهما اللتين نوهنا عنهما آنفا، وسوف نجد له حلاوة تتصل بحسن

الاختيار للفظ، وقوة النسق، ورشاقة المعرض، وملاحة المعانى التى لم يعبها أنه يكررها فى هذه القصائد التى ساقها مساق الوصف للذات الحياة والاستهتار بالشهوات والغزل، فسوف يذكر الراح فيجعلها مجوسية الأنساب مسلمة البعل كما فعل فى لاميته السابقة . ويجعلها هنا بنت مجوسى، أبوها حليلها، فيفتتح القصيدة بذكر ساحرة العينين التى تسره بالوصل وتجاهره بالقطيعة ، ومايلقاه من الوشاة من تكديرهم لصفو هواه، وينتهى من ذلك إلى زائرته التى راع النوم بلقائها وعادى من أجلها كوكب الصبح، ويصف مشيها وخوفها من نميمة حليها وعطرها ومناجاته لها والبدر يمثلها له وهى تمثله له إلى أن يعود الى ذكر الراح وأحب الندامى اليها وما تصبغ به جلابيب السقاة ويقول فى غزل المذكر: وداربها ظبي يتجاذبه الشراب، ويسارقونه اللحظات وهو يسقيهم من يده ومن طرفه ويذكر سلوكه للصبا غرائب السبل، ويشبه الأقداح بنهود الكواعب العذارى ، ويختم هذا الوصف بذكر الغناء والعزف فهو يقول :—

وساحرة العينين ماتحسن السحرا تواصلنى سرا وتقطعنى جهرا
أبت حدق الواشين أن يصفو الهوى لنا فتعاطينا التعزى والصبرا
وزائرة رعت الكرى بلقائها وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا
إذا مامشت خافت نميمة حليها تدارى على المشى الخلاخيل والعطرا
فبت أسر البدر طورا حديثها وطورا أناجي البدر أحسبها البدرا
وبنت مجوسى ، أبوها حليلها إذا نسبت لم تعد نسبتها النهرا

يعنى بقوله بنت مجوسى الخمر، وجعلها كذلك ناظرا إلى ماكان معروفا فى شرائع المجوس من استحلال الرجل لبنته، ولما كانت الخمر من العنب وهو من الماء فالماء أبوها ثم يمزج بها عند الشرائب فهو حليلها :

أخص الندامى عندها وأحبهم إليها الذى لايعرف الظهر والعصرا
بعثت لها خطابها فأتوا بها وسقت لها عنهم إلى ربها المهرا

إلى أن تلاقوها بخاتم ربها مخدرة قد عتقت حججا عشرا
إذا مسها الساقي أعارت بنانه جلابيب كالجاوي من لونها صفرا
ودار بها ظبي من الإنس ناعم ترود عيون الشرب جانبه شزرا
إذا ما أدار الكأس ثنى بطرفه فعاطاهم خمرا وعاطاهم سحرا
إلى أن دعا للسكر داع فوتوا وكان مدير الكأس أحسنهم سكرا
سلكنا سبيلا للصبا أجنبية ضمنا لها أن نعصي اللوم والزجرا
بركب خفاف من زجاج كأنها ثدي عذاري لم تخف من يدكرا
علينا من التوفير والحلم عارض إذا نحن شئنا أمطر العرف والزمرا

وعلى هذا النحو يقول أبو نواس ويمحضها لغزل المذكر مع اتصال النسق، واعتدال أقسام الكلام، وتهادي خجزاته، وتجانس مقاطعه فيستهل بذكر حواره للأحور الذمي، الذي يطرق فناءه بإخوان الصدق ليلا فيهب مذعورا خائفا كأن عسسا يستقفونه ثم يفتح أبوابه غير هائب حين يعلم علمهم ويدرك سرهم ويسأله الماجن عن اسمه، ويصف بجاذبة ردفه لخصره وجنونهم بحلاوة لفظه ثم يتباعون منه قهوة قد عتقت دهرا في دنها بعد أن يبذل له الخمسة الصفر في ثمنها ومازال يسقيهم ويشرب معهم ويغنيهم بشعر مضمن من قصيدة أخرى للشاعر يهيء له المكان ويحقق المجانسة، وكثيرا مايفعل ذلك أبو نواس ثم ينتهي بألا يكني عن السوءة لمعادته مما عف مسلم عن عاره ولم يذكره في أشعاره، يقول الحكمي :

وأحور ذمي طرقت فناءه بفتيان صدق ماترى منهم نكرا
فلما قرعنا بابه هب خائفا وأقبل نحو الباب ممتلئا ذعرا
وقال من الطراق ليلا فناءنا؟ فقلت له : افتح فتية، طلبوا خمرا
فأطلق عن أبوابه غير هائب وأطلع من أزراره قمرا بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله يجاذب منه الردف في مشيه الخمرا

فقلت له: ما الاسم؟ حييت. قال لي: دعاني أبي سابا، ولقبني شمرا
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلنا له: جئناك نبتاع قهوة معتقة قد أنفدت قدما دهرا
فقال: اربعوا، عندي التي تطلبونها قد احتجبت في خدرها حقبا عشرا
فقلت: فماذا مهرها؟ قال مهرها إليك، فسقنا نحوه خمسة صفرا
ومازال يسقينا ويشرب دائبا ألى أن تغنى حين مالت به سكرا
فما ظبية ترعى مساقط روضة كسا الواكف الغادي لها ورقا خضرا
بأحسن منه منظرا زان مخبرا بل الظبي منه شابه الجيد والنحرا
فياحسنه لحنا بدا من لسانه وياحسنه لحظا وياحسنه ثغرا

وظاهر مابين القصيدتين من المشابهة في الألفاظ والتشبيهات. ولمسلم وصف بديع للسفينة نحب أن نختم به حديثنا عنه وإن كان كما سيظهر قد تكلفه وتأنق في نظمه وتأليفه. وقد ابتدأه بذكر الساقية وطلبه اليها أن تدير عليه الراح كما قيل في لاميته السابقة ووصف ماباحت به الكأس من سره، وأنه إن شاء كان بين صبوح من الحب يغاديه وغبوق من الخمر يماسيه يحمل علاقة المودة بينه وبين صاحبته غمزات الحواجب ومصايد الألحاظ وانتهى إلى ذكر البحر وهو بالضرورة يقصد الفرات، فذكر تلاطم أمواجه وترامي عبابه وهو معظمه بالجرجرة وهي صوت اضطراب الموج وتصفيقه على حافات النهر الذي يطعم حيتانه من غرقاه، ويشتد هوله على الملاحين حين تهب فيه الجنوب، فتقلب جواريه أي مراكبه أو تقف مكانها من الخوف لاتبرح، ويصف دبيب الموج في جنباتها بما تثيره الصبا بدبيبها بين الكثبان العفر أي الحمر من الرمال، وأنه كشف شدائد الدجى وأهاويله بهذه السفينة الحاملة لما على ظهرها من المتاع والركبان، المحمولة على الماء وهي بكر لم تركب قبل هذه المرة وقد لطم خديها الحباب فخطط ظهرها ووسم نحرها، يشير إلى ما يجعله أصحابها السفن في

مقاديمها من البياض وأنها تروعك عند إقبالها بما تراه فى مقدمتها مما يشبه قنة القرهب أى رأس الثور وتريك عند إدبارها بما ركب على جنبتيها من المجاذيف جناحى النسر فى الامتداد والإحاطة والنوتى يتنحى بها عن مواطن المخاوف كأنما يسير من لجج الماء فى جبل وعر. ثم وصف خروجها من حباب الماء وهو مايتلاصق حولها من الزبد لشدة جريانها فيشبهها لذلك بانثناء الجارية من كسر ستر إلى آخر، وأنها حين تواجه نسيم الصبا تتهادى به كما تمشى العروس إلى الخدر حتى علتها أردية خضر من نسيج الموج وهى تؤم بهم محل الراغبين الذى لاتذاد عنه رحال المسافرين يركبون البحر إلى مايشبهه فى الجود والكرم فهو يقول :—

أد يرى علىّ الراح ساقية الخمر ولاتستلينى وأسألى الكأس عن أمرى
كأنك بى قد أظهرت مضمر الحشا لك الكأس حتى أطلعتك على سرى
وقد كنت أقلى الراح أن يستفزنى فتنطق كأس عن لسانى ولا أدرى
ولكننى أعطيت مقودى الصبا فقاد ثبات اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غادانى صبوح من الهوى وإن شئت ماسانى غبوق من الخمر
ذهبت ولم أحدد بعينى نظرة وأيقنت أن العين هاتكة سترى
جعلنا علامات المودة بيننا مصايد لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين طرفها وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

ثم يقول :—

وملتطم الأمواج يرمى عبابه بحرجرة الآذى للغير والعبر
مطعمة حيتانه ما يغبها مآكل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت جواريه أو قامت مع الريح لاتجرى
كان مدب الموج فى جنباتها مدب الصبا بين الوعاث من العفر
كشفت أهاويل الدجى عن مهوله بجارية محمولة حامل بكر

لطمت بخديها الحباب فأصبحت موقفة الدايات مرثومة النمر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وان أدبرت راقت بقادمتى نسر
تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الإشفاق فى جبل وعر
تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخبأة من كسر ستر إلى ستر
كأن الصبا تحكى بها حين واجهت نسيم الصبا مشى العروس إلى الخدر
وحتى علاها الموج فى جنباتها بأردية من نسج طحلبة خضر
تؤم محل الراغبين وحيث لا تذاد إذا حلت به أرحل السفر
ركبنا إليه البحر فى مؤخراته فأوفت بنا من بعد بحر إلى بحر

ذلك وقد أعرضنا عن ذكر بقية ماله من الأسفار فى الرثاء والغزل، وما اخترعه من الأوزان فى الشعر كقوله مثلا : —

« يأيها المعود قد شفك الصدود »

وهى قصيدة طويلة كلها فى الغزل والشراب والغناء ووصف الأقداح والسقاة وله مثلها فى مديح محمد بن منصور يقول فى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد
وصاده غزال يرمى فما يصاد

ويقول ملغزا فى خاتم مجاريا لأهل عصره فى ميلهم إلى المعاياة والمعاجزة من عادة الفراغ وما تنشئه الدعة من حب العبث واللهو يقول :—

وأبيض أما رأسه فدور نقى وأما جسمه فمعار
وما يشترى إلا ليسكن وسطه مؤنثة لم تكس قط خمار
لها أخوات أربع من مثلها ولكنها الصغرى وهن كبار
وما فيه من نفع سوى خط رأسه وبعدُ ففيه زينة ووقار

وقد نعود إلى بعض مافاتنا من أخبار مسلم وأشعاره مرة أخرى عندما يسنح الوقت إن شاء الله .

محمد هاشم عطية